أبناء النبي صلى الله عليه وسلم

البنون والبنات وأمهاتهم
رضي الله عنهم أجمعين

إبراهيم محمد حسن الجمل

دار الفضيلة

دار الفضيلة

للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة، القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي -
كلية البنات - مصر الجديدة - ت وفاكس ٤١٨٩٦٦٥
المكتبة، ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات، دبي - ديرة - ص ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦

وكيلنا في المملكة المغربية،

دار الاعتصام

للطباعة والنشر والتوزيع

الدرحماني عبد السلام

35 - 33 الشارع الملكي (الأحباس) - الدار البيضاء
الهاتف 30.42.85 - الفاكس 44.45.39

جميع الحقوق محفوظة للناشر

تمهيد

اقتضت حكمة اللّه وإرادته أن يخلق الوجود بكل ما فيه ومن فيه ، وقد فضّل بعضه على بعض ، فهناك الزّمان المفضل كيوم الجمعة المفضل على ما سواه من أيام الأسبوع ، وكشهر رمضان ، المفضّل على شُهور العام ، وهناك المكان المفضل كحَرم مكّة والمدينة ، وهناك المسجد الحرام بمكة الذى بناه سيدنا إبراهيم – عليه السلام – ، ومسجد المدينة ، والمسجد الأقصى ، كذلك هناك السّماء المفضلة ، وهى السماء السابعة .

وإذا انتقلنا بالتفضيل إلى الإنسان ، قرأنا فى القرآن الكريم قول المولى سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (١) .

وقوله سبحانه : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ... ﴾ (٢) .

وقوله جلّ شأنُهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ

---

(١) سورة الإسراء ، الآية (٧٠) .

(٢) سورة البقرة ، الآية (٢٥٣) .

(٣) سورة آل عمران ، الآيتان (٣٣ ، ٣٤) .

بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾[2].

★ ★ ★

والتفضيل ... كما يأتى صريحاً واضحاً ... فإنه يأتى كذلك تضميناً ، وليس ظاهراً كما حدثنا القرآن الكريم عن رسول اللّه ﷺ وأهل بيته الأكرمين ، وفى مقدمتهم أبناؤه ﷺ :

﴿ ... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾[3] وذلك لأسباب وعِلل قد تخفى علينا .

وإذا كنا قد اخترنا من أهل البيت أبناء رسول اللّه ﷺ كى نتحدث عنهم فى هذا الكتاب ... فلأننا نريد أن نتناول سيرتهم ... وما واجهوه من متاعب وشدة فى حياتهم ... على الرغم من أن اللّه قد فضلهم على غيرهم ، فإنهم مع هذا التفضيل ، كانوا بعيدين تماماً عما يمكن أن نطلق عليه الامتياز فى أى شىء فى هذه الحياة الفانية ...

فهاهى السيدة زينب – رضى اللّه عنها – برحلتها الشاقة الطويلة فى هذه الحياة ، وكذلك أُختاها رقية وأُم كلثوم – رضى اللّه عنهما – ، وما صادفهما من متاعب ومشاق وتنقلهما من حال إلى حال ، ومن بيت إلى بيت ، ثم إنهما تركتا الحياة الدنيا وهما فى أوج الشباب .

أما القاسم ... وعبد اللّه ... وإبراهيم – رضى اللّه عنهم – فقد ماتوا صغاراً ... كما اقتضت إرادة اللّه ... ولا راد لقضائه .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية (١٦٥) . (٢) سورة آل عمران ، الآية (٤٢) .
(٣) سورة الأحزاب ، الآية (٣٣) .

ولقد بدأت كتابى هذا بالحديث عن رسول اللّه ﷺ فى جزء هام من حياته ، وهو الزوج والأب ، لما لهما من صلة بموضوعنا الذى نتحدث عنه ، ثم تحدثت عن الزوجين اللتين كان له منهما الولد والبنات وهما السيدتان خديجة بنت خويلد ، ومارية المصرية – رضى اللّه عنهما – فقد تحدثت عنهما بشىء من التفصيل .

وتحدثت عن البنين من أبنائه وهم : القاسم ، وعبد اللّه ، وإبراهيم ...

وعن البنات وهن : زينب ، وعن زواجها من ابن خالتها ... ثم إسلامها وبقاء زوجها مع المشركين ، وعن التفرقة بينهما بعد أن منع الإسلام زواج المسلمة بغير المسلم أو استمرار هذا الزواج ، ثم استجابة زوجها لما طلبه رسول اللّه ﷺ فردها إليه فى المدينة ما دام لم يسلم ، وتعرضت بالتفصيل لما فعله هبار بن الأسود ببعيرها حتى سقطت على صخر الصحراء ففقدت جنينها وما لاقته من شدة وألم ، ووصولها إلى أبيها ، ثم رجوع ابن خالتها إليها وإسلامه وإعادة عقد زواجها ، ثم موتها متأثرة بما أصابها من قبل .

وتعرضت لابنتى الرسول ﷺ رُقية وأُمّ كلثوم بالحديث عن زواجهما من ابنى أبى لهب ، ثم ردهما إلى أبيهما ﷺ ، ثم زواجهما من عثمان بن عفان – رضى اللّه عنه – الواحدة بعد الأُخرى ، وقد فارقت كل منهما الحياة فى عز الشباب .

وختمت ذكر البنات بالسيدة فاطمة – رضى اللّه عنها – ، وتعرضت بالتفصيل لزواجها من على بن أبى طالب – رضى اللّه عنه – وما لاقته من شدّة فى حياتها ، وأنها لم تتميز فى الدنيا عن باقى المسلمات بشىء ، وكان من الممكن أن تعيش فى الترف والنعيم ، ولكن رسول اللّه ﷺ يأبى إلّا أن تكون كإحدى نساء المسلمين بلا تفرقة ولا تفضيل فعاشت هى وزوجها وأولادها كباقى المسلمين .

وعند اللّه التفضيل والمنزلة والمكانة ، وفى حياة أولاده ﷺ التأسى والسلوان والمحبّة والتقدير ، ولا نملك إلّا أن نقول كما نقول فى صلاتنا كل وقت وحين :

« اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِى العَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » ، ومن الآل الأولاد – رضى اللّه عنهم أجمعين – .

اللهم ألحقنا بهم ، وأجزل لنا الأجر والثواب .

إبراهيم محمد حسن الجمل

★ ★ ★

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَوجاً وَأَباً

أَولًا – الرَّسُول ﷺ الزَّوْج :

قد يتزوج الواحد منا امرأة واحدة ، فلا يتمكن من أن يحسن قيادتها ، وقد يتزوج اثنتين ، فينطبق عليه قول الشاعر فى أبياته المعروفة التى مطلعها :

* تَزَوَّجتُ اثْنَتَين لفَرط جَهْلى *

وقد يتزوج ثلاث زوجات فيمسك العصا ، أو يتزوج أربعاً ، فلا يستطيع قيادتهن إلَّا بـ (الكرباج) ومعه ما حوته القواميس من ألفاظ الشتائم أو السباب ، وتلك – والله – طبيعة البشر القاصرة .

أما أن يتزوج أكثر من هذا العدد برخصة خاصة من رب السماء لغاية يعلمها المولى سبحانه وتعالى ، وقد تغيب عن تفكيرنا المحدود ، ويعاشرهن سنوات وسنوات ، فيحسن القيادة ، ويبلغ بها القمة مع اختلاف الطبائع والغايات والجنسيات ، فلا تخرج من فمه كلمة نابية لواحدة منهن ، ولا يشتم ، ولا يسب ، أو يستخدم القوة ، أو الأوامر الصارمة ، أو يكمم الأفواه ، فلا تتكلم الواحدة إلَّا بإذن خاص ، فهذا ما لم يحدث إلَّا لخاتم الأنبياء والمرسلين (محمد بن عبد الله ﷺ) .

★ ★ ★

ذلك ما كان عليه الزوج والنبى والرسول ﷺ ، فقد عقد على ثلاث عشرة ، لم يدخل على اثنين منهن ، وهما أسماء بنت النعمان ، وعمرة بنت يزيد [1] ، الأُولى وجد بها بياضاً فردّها ، وهذا عيب خِلْقى ، والثانية كانت حديثة عهد بكفر ، فلما قدمت على الرسول ﷺ استعاذت من الرسول ، فقال لها : « منيع عائذ بالله » وردها إلى أهلها ، ولم يدخل بها ﷺ .

أما الإحدى عشرة اللاتى دخل بهن ﷺ ، فقد ماتت اثنتان فى حياته ﷺ وهما السيدة خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - ، وتوفيت بمكة قبل الهجرة ، والثانية ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وتوفيت بمكان قريب من مكة يسمى (سرف) ، فقد تمنت أن تموت بهذا المكان وهو الذى بنى بها ﷺ فيه ، فحقق الله لها ما أرادت .

أما الزوجات الباقيات فهن تسع :

سودة بن زمعة ، وعائشة بنت أبى بكر ، وحفصة بنت عمر ، وزينب بنت خزيمة ، وأُم سلمة ، وأُم حبيبة ، وزينب بنت جحش ، وصفية بنت حيى ، وجويرية بنت الحارث ، يضاف إليهن مارية المصرية التى أهداها له المقوقس ، وكلهن توفين بعده ﷺ .

★ ★ ★

لم يضرب قطّ إحدى زوجاته ، فلم يؤثر عنه أن يده الشريفة امتدت على واحدة منهن ، ولم تصدر منه كلمة نابية لواحدة منهن ،

---

(١) هذه رواية ابن هشام فى كتابه .

بل لقد أدَّبنَا وعَلَّمنا الطريقة المثلى التى ينبغى للمسلم أن يعامل بها زوجته .

فقد روى عنه ﷺ أنه قال : « أَمَا يَسْتَحِي أَحَدُكُمْ أَنْ يَضْرِبَ امْرَأَتَهُ كَمَا يَضْرِبُ العَبْدُ ، يَضْرِبُهَا أَوَّلَ اللَّيْلِ ، ويُجَامِعُهَا فِى آخِرِهِ » (١) .

★ ★ ★

ورسول الله ﷺ يُعلِّمنَا أن المرأة مهما ادّعتْ القُوة ، وكابرت وتَعالَتْ ، وطلبت المساواة ، فإنها ضعيفة تحتاج فى معاملتها إلى الرّأفة والشَّفقة والرَّحمَة ؛ لأنها « خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ لن تستقيم لك على طريقة ، فإذَا استمتعت بها استمتعت وبها عِوَجٌ ، وإنْ ذَهَبْتَ تُقِيمَهُ كَسَرْتهَا وكَسْرُهَا طَلَاقُهَا » (٢) .

★ ★ ★

لقد أفاض ﷺ القول فى إكرام الزوجة ، وحث حثًّا شديداً على معاملتها بالحُسنَى فى كثير من أحاديثه ﷺ ، نذكر منها قوله :

« اتَّقُوا اللهَ فِى النِّسَاءِ » (٣) .

« النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ » (٤) .

« خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِى » (٥) .

« لَا يَفْرَكُ (٦) مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقاً رَضِىَ آخَر » (٧) .

---

(١) كنز العمال (٤٤٩٨٣) . (٢) البخارى (٣٤/٧) .

(٣) رواه مسلم : كتاب الحج (١٤٧) ، والترمذى (١١٦٣) .

(٤) كشف الخفا (٤٥٣/٢) . (٥) الترمذى (٣٨٩٥) ، وابن ماجه (١٩٧٧) .

(٦) يَفْرَك من فَرَك يَفْرَكُ فَرَكا : كَرِهَ وأبْغَضَ ، بخلاف فَرَك يَفْرُك فَرْكاً : حكّه .

(٧) مسلم : الرضاع ، باب ١٨ رقم (٦٣) .

« اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْراً »[1].

« الرَّجُلُ رَاعٍ فِي بَيْتِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا »[2].

وهذا ما أدَّبنَا به المولى سبحانه وتعالى ، ووردت آيات القرآن الكريم تؤكد ما عليه الرسول ﷺ ، فقال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ... ﴾[3].

﴿ ... وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ... ﴾[4].

﴿ ... فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ... ﴾[5].

﴿ ... هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ... ﴾[6].

★ ★ ★

كان ﷺ قدوة طيبة بمعاملته لزوجاته ، كان مَثَلًا أعلى يحتذيه كل مسلم ، كان يترك لزوجاته حرية الكلمة ، لِيَقُلْنَ ما يُرِدْنَ قوله ، ويُعَبِّرْنَ عن آرائهن بكل شجاعة ما دام ذلك لا يمسّ شعور الأخريات ، أو يُغضب الله سبحانه وتعالى ، أو يُسيء إلى تسامحه ﷺ .

وله في ذلك مواقف طيِّبة ، تدعُونا إلى التّأسي به ، والاقتداء بما كان يفعله ﷺ ، فحينما وصلت زوجته صفية بنت حيي – رضي

---

(١) سبق تخريجه بلفظ : « خُلقت من ضلع » بالصفحة السابقة .
(٢) رواه البخاري (٦/٢) ، والترمذي (١٧٠٥) .
(٣) سورة الروم ، الآية (٢١) .
(٤) سورة النساء ، الآية (١٩) .
(٥) سورة البقرة ، الآية (٢٣٢) .
(٦) سورة البقرة ، الآية (١٨٧) .

الله عنها – إلى المدينة ، ونزلت كما أمر رسول الله ﷺ على عائلة الصحابى الجليل حارثة بن النعمان (رضى الله عنه) لكى تكمل النِّسوة زينتها فى ليلة عرسها ، ودخول الرسول ﷺ بها ، وتسامع نساء المدينة عنها ، فجئن ينظرن جمالها ، وخرجت السيدة عائشة – رضى الله عنها – متخفية ، ولمحها النبى ﷺ ، فتتبّع خطواتها من بعيد ، فرآها تدخل بيت ابن النعمان (رضى الله عنه) ، فانتظر حتى خرجت فأدركها ، وأمسك بثوبها ، وسألها مبتسماً : كيف رأيت يا شُقَيْراء ؟

فَهَزَّتْ كتفيها قائلة : رأيت يهودية .

فرد النبى ﷺ بالحُسنَى قائلًا : « لَا تقُولى ذلك ؛ فإنها أَسْلَمتْ وحسُنَ إِسلامها »[1] .

★ ★ ★

كان ﷺ يُخاطب نساءَه برفق ولين ، ولا يجد مانعاً أن تناقشه الواحدة منهن ، وأن يترك لها المبادرة ، وبصبر وتؤدة وهدوء يرد على من تناقشه بالدليل والحجة .

ففى حديث بيعة الرضوان قال رسول الله ﷺ : « لَا يَدخُل النَّار – إن شاء الله – أَصحاب الشَّجَرة والَّذينَ بَايعُوا تحتها » .

فتأبى السيدة حفصة – رضى الله عنها – إلَّا أن تناقشه وترد عليه قائلة : « بلى يا رسول الله ... » .

فيسأل : من أَين جئت بهذا ؟

فتلت الآية الكريمة : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيًّا ﴾[2] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٩٨٠) بألفاظ مختلفة . (٢) سورة مريم ، الآية (٧١) .

فما كان من النبى ﷺ إلَّا أن تلا الآية التى بعدها : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[1] .

★ ★ ★

كان النبى ﷺ أحياناً يدعو أبا بكر (رضى الله عنه) إلى بيت السيدة عائشة - رضى الله عنها - ، وتأبى السيدة عائشة إلَّا أن تناقش زوجها فيما يعرض لها من أمر أمام أبيها ، وكان - رضى الله عنه - يأبى أن تناقش زوجها ، وكثيراً ما نهر زوجته - رضى الله عنه - ، وأغلق عليها باب المناقشة ، فيتألم من أن يرى ابنته تفعل ذلك مع الرسول ﷺ فيغضب ويثور على ابنته ، ولكن النبى ﷺ يهدئ من روعه ويقول : « ما لهذَا دَعَونَاك »[2] .

وكان من الممكن أن يتركه ليلقى على ابنته درساً لن تنساه ، ولكن خُلُقَهُ الكريم يأبى ذلك .

★ ★ ★

كان النبى ﷺ يُشاور أهل بيتهَ وزوجاته إذا تأَزَّمَتْ الأُمور ، فيشرن عليه بالرأى الصَّائب ، ونذكر من ذلك ما حصل يوم الحديبية ، وقد كتب رسول الله ﷺ كتاب الصُّلح المشهور ولم يرض المسلمون عنه ، فقد غابَ عنهم حِكْمَته ، وَبُعْد نظر المصطفى ﷺ ، وكان المسلمون يريدون أن يدخلوا مكة عنْوَة فى الوقت الذى منعهم كتابة هذا الصلح من الدخُول ، فأصابهم هَمّ وغَمّ لمجيئهم قُرْب مكة ، وحرمانهم من أداء العُمْرَة .

---

(١) سورة مريم ، الآية (٧٢) ، والحديث فى طبقات ابن سعد (٧٣/١/٢) .

(٢) رواه عبد الرزاق فى « مصنفه » (٢٠٩٢٤) .

ثم طلب منهم رسول الله ﷺ النَّحر والحَلْق أو التَّقصير ، وهم فى مكانهم قبل أن يرجعوا إلى المدينة ، وكرر عليهم طلبه ثلاث مرات ، فلم يقم منهم رجل بما أُمر .

دخل الرسول ﷺ على زوجته السيدة أُمّ سلمة - رضى الله عنها - مهموماً حزيناً ممَّا فعله الناس ، فلما سألته عمَّا به ، ذكر لها ما لقى من أصحابه .

فقالت - رضى الله عنها - : يا نبى الله اخرج إلى المسلمين ، ثم لا تُكَلِّم أحداً حتى تَنْحَر بدنتك ، وتدعو حالقك فيحلق شعرك .

عمل الزوج ﷺ بما أشارت به أُمّ سلمة زوجه (رضى الله عنها) ، فلم يُكَلِّم أحداً ، فَنَحَر وحَلَق ، فلما رأى المسلمون ذلك قاموا فَنَحرُوا وجعل بعضهم يحلق لبعض ، وأسرعوا فى ذلك حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًّا وهمًّا نادمين على ما كان منهم تجاه نبيهم ﷺ .

★ ★ ★

كان النبى ﷺ فى معاملته مع زوجاته يَرُدُّ الكَلِمَةَ بالكَلِمَةِ وبالدَّليل ، لا يجعل من الأُمور التى قد تكون بسيطة مجالًا للإفراط فى الكلام والزّيادة والتعليق ، وتحميل الأُمور ما لا تطيق ، وفرض استنتاجات قد لا تحصل ، وربطها بأُمور سابقة وإلقاء الخُطَب والمواعظ ، لكن رده الشريف كثيراً ما يكون فيه الطّرافة واللُّطف والإلماح البعيد .

جاءته ابنته الحبيبة السيدة فاطمة - رضى الله عنها - باكية شاكية تذكر ما قالته لها زوجته السيدة عائشة - رضى الله عنها - فأغضبها ، فذهبت إلى زوجها ﷺ تشكوها له .

قالت – رضى الله عنها – : إن زوجتك عائشة – رضى الله عنها – قالت لى : إن أباك تزوجنى بكراً ، وتزوج أُمَّكِ ثَيِّباً ، ثم اشتدت فى البكاء ، فضمها النبى ﷺ إلى صدره وقال : « قُولى لَهَا : إِنَّ أَبِى تَزَوَّجَ أُمِّى وَهُوَ بِكْرٌ ، وَلَمْ يَتَزَوَّجْ قَبْلَهَا » .

★ ★ ★

كان فى إمكان الرسول ﷺ أن يسكن البيوت ذات الغُرَفِ المُجَهَّزَةِ بالفَرْشِ والدِّيباج والحرير ، كما كان يعيش الملوك والحُكَّام ورُؤَساء القبائل فى ذلك العهد لكنها كانت حُجُرَات بسيطة جدًّا حول المسجد : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾ (١) .

فماذا كان فى بيت زوجته المُحَبَّبَةِ إِلَيْهِ السيدة عائشة – رضى الله عنها – ؟ وكانت أقرب الزوجات إلى قلبه ﷺ ، وأولى بالوثير من الفُرُش .

كان هذا البيت حجرة من الحُجُرَاتِ التى بُنيت للزوجات حول مسجده ﷺ ، بُنيت هذه الحجرة بالطوب اللَّبِن (٢) ، وسُقِّفَتْ بِسَعَف النَّخِيلِ ، وَوُضِعَ فيها فراش من أدم حشوه ليف ، ليس بينه وبين الأرض إلَّا حصير ، ومن فتحة الباب أُسْدِلَ سِتَارٌ من شَعْر .

الرسول ﷺ بهذا يَضرب لنا المثل الأَعلى ليبين لنا أن سَعَادة المرْءِ ليست فى النَّاعم والغَالى والنَّادر من الفراش ، فكم من قُصُور

---

(١) سورة الحجرات ، الآية (٤) .

(٢) **الطوب اللَّبِن** : الطوب من الطين ولم يدخل النار .

أُنْفِقَ عليها آلاف الآلاف وسكانها يعيشون فى سأم وَمَلَلٍ ، فالسعادة ليست فى المغالاة فى الفرش واللباس ، وإنما هى فى الإيمان والرِّضا والإخلاص والرَّجاء فيما عند الله - عَزَّ وَجَلَّ - .

★ ★ ★

أرادت صحابية جليلة وقد زارت بيت الزوجة السيدة عائشة - رضى الله عنها - ، ورأت ما فيه من فراش ، فأَحبت أن تهدى السيدة عائشة - رضى الله عنها - فراشاً ناعماً ، فما أن وصل الفراش إلى حُجرة الزوجة حتى ردهُ النبى ﷺ إلى صاحبته .

لقد كانت الزوجات جميعهن فى غاية السَّعادة والرِّضا مع هذا الزَّوج العَظيم بالإيمان القَوىّ والرِّضا التام والرُّجولة النَّادرة !!

★ ★ ★

ثم إن الله سبحانه وتعالى اختار زوجة من زوجاته ﷺ هى أحبهن إليه ، لنتعلَّم على يديها درساً عمليًّا صعباً - نحن المسلمين - لمشكلة تتنازعها الأهواء والأوهام والهواجس النفسية تتكرر كثيراً مع مرور الأيام والسنين فى بيوت الزوجية ، ويترتب عليها أُمور جِسامٌ من هدم البيوت تحت نير الإشاعات المغرضة والكذب والافتراء فأعطتنا درساً ينبغى أن نعيه جيداً ، وأن تكون لنا عبرة وعظة ، وهى فى بيت من بيوت الزوج محمد ﷺ ، وتحت سمع وبصر الزوج .

ونحن أَوْلى بأن نتعرف عليه ، وبخاصة فى زماننا هذا ، فقد تدور إشاعة وهميّة حول زوجة ورجل يتناقلها المغرضون ويوشون

بها ويُحَمِّلونها ما لا تطيق ، بل قد يوصلونها إلى الزوج بوسيلة كاذبة ، فيحصل ما لا تُحمد عُقْبَاهُ من خَراب للبيوت ، وتشتيت للأُسرة ، وقد تُؤَدِّى تلك الوشاية إلى السِّجن أو القتل .

★ ★ ★

كانت بطلة تلك الحادثة هى زوجة الرسول ﷺ عائشة بنت أبى بكر - رضى الله عنهما - ، فقد كان من عادة الزوج ﷺ إذا خرج لغَزْوَة من الغَزَوَات أن يُقرع بين الزوجات ، فإذا خرجت القُرْعَةُ لواحدة منهن أخذها معه ، وخرج سهم الزوجة عائشة - رضى الله عنها - فسافرت معه ﷺ ، وفى أثناء العودة ، وقد اقتربوا من المدينة ، استراحَ الناس استعداداً لملاقاة الأهل ؛ ولما هَمُّوا بالمسير تفَقَّدتْ السيدة عائشة عقْدهَا ، فلم تجده فحسبت أنها فقدته حينما ذهبت لقضاء حاجتها ، فرجعت إلى المكان تبحث عنه حتى وجدته ، ولما رجعت إلى مكانها كانَ القوم قد أخذوا مسيرتهم ، وحملوا معهم الهودج الخاص بها - رضى الله عنها - ، ووضعوه على الرَّاحلَة يقيناً منهم بأن السيدة عائشة - رضى الله عنها - فيه .

★ ★ ★

وبدأت المسيرة ليلًا ، وكان من العادة أن يتأَخَّر بعض الرِّجال عن الجيش فَرُبَّمَا يكون هناكَ من تخلَّف لسبب من الأسباب ، وقد يكون ... فقد رأى واحد من المتتبعين سَوَاد إنسان ، فلما اقتربَ منها عرف أنها زوجة الرسول ﷺ ، فأناخ راحلته وركبتها ، وانطلق يقودها حتى أتيا الجيش قُرب الظَّهيرة .

★ ★ ★

أشاع المنافقون ما أشاعوا ، واتهموا الزوجة عائشة – رضى الله عنها – باتِّهَامات خسيسة ، وروجوا لها ، وزادوا عليها ما زادوا ، ووصل الخبر إلى الزوج رسول الله ﷺ ، فآلمه أن يَسمع عن بنت أبى بكر الصِّديق – رضى الله عنهما – ما سمع ، فهى الزوجة والقريبة من القلب ، ولكن ذلك لم يمنعه أن يتابع الأمر كى يصل إلى الحقيقة ، وبخاصة أنَّ ما أُشِيع أخذ ينتشر ، ومن كثرة الولوغ فيه ، وتناقله أصبح وكأنه حدث وقع .

★ ★ ★

فى سِرِّيَّةٍ تامَّةٍ أخذ الزوج ﷺ يَدْرُسُ المشكلة ، ومشكلة مثل هذه إن كانت صحيحة لا تحدث من فراغ ، فلها مقدمات واستعدادات ومحاولات قبل أن تقع صاحبتها فى مثل ما اتهمت به .

لم يسأل الزوجة ، ولم يحاول أن يظهر لها تغيره وحزنه ، ولم يُلَمِّح لها من قريب أو بعيد ، وإنما سأل أقرب الناس إليه أُسامة ابن زيد – رضى الله عنهما – ، فقال : « هُمْ أَهْلُكَ وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْراً » .

أما عَلِيُّ بن أبى طالب ابن عمِّه – رضى الله عنه – ، فكان ممَّا قاله : « ... واسْأَلِ الجَارِيَة تَصْدُقُكَ » .

فسأل الزوج ﷺ جاريتها بريرة ، فقالت : « والَّذِى بَعَثَكَ بالحقِّ ما رَأَيْت عَلَيْهَا أَمْراً أَغْمِطُهُ[1] عليها غَيْرَ أَنَّها جَارِيَةٌ حديثة السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِين أَهْلِهَا فَتَأْتِى الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ » .

---

(١) غمط : أنكر .

وسأل ﷺ زوجته وابنة عمته زينب بنت جحش – رضى الله عنها – ، وهى تنافس عائشة – رضى الله عنها – فى حبها للزوج ﷺ ، فقالت بعد أن استعاذت : « حَمَىٰ اللهُ سَمْعِى وبَصَرِى ، وَاللهِ ما عَلِمْتُ إِلَّا خَيْراً » .

★ ★ ★

أَلَمَّ بالزوجة عائشة – رضى الله عنها – مرض ، فأَرسلت إلى أُمِّها لتمرضها فى بيت الزوجية ، وكانت الأُمّ أُمّ رومان ، والأَب أَبو بكر الصِّديق – رضى الله عنهما – على علم بهذه القضية لكنهُمَا لم يتكلَّمَا فى الموضوع لابنتهما ، أو للرسول ﷺ .

كان الزوج ﷺ يدخل على الزوجة ومعها أُمُّها فيسلّم ، ثم يقول : كيف تيكم ؟ ولا يزيد ! .

ثم رأت عائشة – رضى الله عنها – أن تُوفِّر على أُمِّها متاعب الانتقال ، فاستأْذَنتْ الزوج ﷺ فى أن تذهب إلى بيت أبيها ، فأَذنَ لها .

كل ذلك ولا عِلْمَ للسيدة عائشة – رضى الله عنها – بما يجرى فى المدينة وعلى ألسنة الناس إلى أن خَرجَتْ مع صحابية مرّة لشأن من الشئون ، وتبادلَا الحديث ، فأَخْبرتهَا الصَّحابية بما يجرى على ألسنة المنافقين ، فلم تكمل عائشة – رضى الله عنها – طريقها ورجعت مُسْرِعَةً إلى أُمِّها ، وهناك قالت تخاطب أُمَّها :

« يا أُمَّاه ... ما يتحدث الناس ؟ » .

فعرفت الأُمّ أن ابنتها علمت بما حدث ، بما يجرى على ألسنة المنافقين ، فطيبت خاطرها ، ثم قالت : « يا بنية ... هَوِّنى عليك » .

قالت الزوجة – رضى الله عنها – : « أى سبحان الله ! أَوَ قَدْ تحدث الناس بهذا ؟!! وراحت تبكى ليلها ونهارها » !

★ ★ ★

علمَ الزوج ﷺ أن الزوجة عرفت حديث النأس ، فدخل عند أبى بكر – رضى الله عنه – فسلَّم ... ثم جلسَ ... وتَشهَّد ... ثم قال مخاطباً زوجته : « أما بعد يا عائشة ... فإنِّى قد بلَغنى عنك كذا وكذا ، فإنْ رأَيت أنك بريئة فَسيُبرئك الله، وإن كنت أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فاستغفرى اللهَ وتوبى إِليه » .

تقول السيدة عائشة – رضى الله عنها – ، وقد تقلَّصت دموعها وجفت ، فقلت لأبى : « أَجبْ عَنِّى رَسُول الله ﷺ » .

فقال أبو بكر – رضى الله عنه – : « واللهِ – يا بنيتى – ما أدرى ماذا أقول لرسول الله ﷺ » .

فقلت لأُمِّى : « أَجيبى عَنِّى رَسُول الله ﷺ » !

قالت مثل ما قاله أبو بكر – رضى الله عنهما – .

قلت – أى السيدة عائشة رضى الله عنها – : « إِنِّى – واللهِ – لقد عَرفت أنكُم سَمعتُم بهذا حتى استقَرّ فى نفُوسكم ، وصدَّقتم به ، فإن قلت لكم : إِنِّى بريئة – والله يَعلَمُ أنى بَريئة – لا تُصدِّقُوننى ، ولئن اعترفْتُ لكم بالأَمر – والله يَعلَمُ أنى بريئة – لتصدقُوننى ، والله والله ما أَجد لى ولكم مثلًا إلَّا كما قال يعقوب أبو يوسف – عليهما السلام – : ﴿ ... **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ**